

## أزمة المثقف في روايات عز الدين جلاوجي أزمة سلطة أم أزمة وعي؟

د/رويدي عدلان قسم اللغة والأدب العربي -كلية الآداب واللغات-

جامعة جيجل

المخلص:

يعالج هذا المقال قضية أزمة المثقف في الرواية الجزائرية، التي تعدّ من القضايا المعقدة، التي طرحت في أغلب النصوص الروائية الجزائرية، وفي روايات عز الدين جلاوجي خصوصا التي عالجاها بكثير من العمق والتحليل، وقدّم العديد من أنماط المثقفين، حيث عبّر من خلالها عن وجهة نظره فيما يخص قضية المثقف الجزائري، وما يعيشه من أزمات.

الكلمات المفتاحية: الأزمة-المثقف-الرواية-الكاتب-عز الدين جلاوجي.

**Abstract :**

This article Treats the Issue of Intellectual crisis in the Algerian Noved , which is one of the most complicated issues that have been discussed in most Algeria Novelist Texts ,and the Novel of Azadinne djlawdji in particular, which dealt with it in depth and Analysis, and presented many kinds of Intellectuals, throught which he Expressed his point,of vieu on the case of the Algerian Intellectual and different crisis he lives it.

**Key words :**the Crisis ;the intellectual ;the Novel ;the writer ;Azadinne djlawdji

**تمهيد:**

يعدّ المثقف من الشخصيات الفاعلة في أيّ مجتمع إنساني، بحكم المكانة التي يحتلها فيه، ودوره في إنتاج الوعي وترسيخه في عقول العامة من الناس، وبناء مؤسسات الدولة، ودوره

المحوري في التحرّر والاستقلال، إضافة إلى نشاطه الكفاحي والنضالي في النهوض بالمجتمع والثقافة، لذلك فدوره بقدر ما يكون إيجابيا من خلال الارتقاء بالفكر الجمعي بقدر ما يكون خطيرا جدًا، لأنه يهدّد حريته في التعبير وسلامته، خصوصا لما يدخل في صراع مع السلطة، ومن هنا أدرك المثقفون هذا الخطر الداهم بهم، فمنهم من فضّل الخضوع ومنهم من استمر في المقاومة، ومن هذا المنظور طرحت هذه القضية على مستويات عدّة.

والكاتب الجزائري باعتباره الممثل الشرعي للفئة المثقفة في البلاد راح يطرح هذه القضية من بوابة الفن الروائي، وعبر المتخيل من أجل تصوير واقع المثقف الجزائري في خضمّ هذه التحولات على مستوى البنيات السياسية والاجتماعية والثقافية، خصوصا في علاقته مع السلطة، وعز الدين جلاوي من بين هؤلاء الكتاب الذين أنهكهم همّ المثقف، فقدّم للقارئ عبر متون روائية عديدة ذلك الصراع السرمدى مع السلطة، من خلال تشكيل شخصيات مثقفة وإشكالية، لذلك سوف نحاول في هذه الورقة البحثية تقديم صورة المثقف وأصناف المثقفين وأزمته، انطلاقا من إشكالية رئيسية يمكن طرحها فيمايلي:

هل أزمة المثقف الجزائري في الخطاب الروائي الجلاوي هي أزمة سلطة أم أزمة وعي؟

ومن هذا المنطلق يمكننا الإشارة إلى جملة من النقاط الأساسية في هذا البحث كتعريف المثقف واستخدام هذا المصطلح، ثم مفهوم المثقف عند المثقفين الجزائريين، ثم تقديم أنماط المثقفين في روايات جلاوي والصراع بينهم، وصولا إلى الخاتمة التي تمثّل خلاصة هذه المقال.

### 1- تعريف المثقف:

عرّف المثقف بتعريفات مختلفة، تختلف كلّما انتقلنا من حقل علمي إلى آخر، فالمثقفون كفئة اجتماعية من الصعب حصر حدودها ووصف وظائفها على نحو واف «إنّ العبارة حديثة نسبيا، بما أنها حسب أغلب المؤرخين استعملت أولا بالفرنسية وبشكل عادي»<sup>(1)</sup>، ولكننا نجد

لهذه الكلمة بعض المعاني في قواميس علم الاجتماع، التي تتفق جميعا على اعتبار الفئة المتعلمة «أعضاء الطبقة المتعلمة في المجتمع الذين يشغلون غالبا وظائف مهنية وإدارية ويحفظون بدرجة معينة الوعي بأنفسهم كطبقة اجتماعية»<sup>(2)</sup>، تسعى إلى نيل الاعتراف من قبل الأصدقاء والجمهور، وفرض وجودها ضمن البنية الاجتماعية، ولكن هذا «الاعتراف من قبل الأقران يسجنها في حلقة الخبراء الاختصاصيين»<sup>(3)</sup>.

ومن بين المفكرين الكبار الذين حدّدوا جيّدا مفهوم المثقف ووظيفته، نجد المفكر الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية إدوارد سعيد، حيث خصص لذلك كتابين هامّين وهما "المثقف والسلطة" و"صور المثقف" أين شرح مفهوم المثقف في قوله: «إنّ المثقف له معنى قديم يقتصر على ما هو خاص بالذهن والعقل أو بالفكر المنطقي واستعمالها اسما للدلالة على صاحب الفكر أو المفكر استعمالا حديثا»<sup>(4)</sup>، فالفكر هو الشرط الأساسي الذي يتوفّر في المثقف.

ويطرح إدوارد سعيد في كتاب "صور المثقف" مفهوم المثقف، والأشكال المختلفة للمثقفين خصوصا الهامشيين، ثم يثير مسألة مهمة تتعلق بطرق مواجهة المثقف لمسألة القوة والسلطة والمثقف المستقل حسب إدوارد سعيد «يشعر بالعجز في مواجهة شبكة الهيئات الاجتماعية القوية في وسائل الإعلام والحكومة والشركات الكبيرة وفي المقابل فإن عدم الانتماء يعدّ امتداد إلى هذه القوى يعني في طرق كثيرة عدم القدرة على إحداث تغيير مباشر»<sup>(5)</sup>، لذلك على المثقف أن يكون واعيا بدوره غير خاضع للشبكة العنكبوتية للسلطة، ويؤدي وظيفته كمفكر ولكي يكون الانسان مهتما ومفكرا بالمجتمع عليه أن يكون مؤهلا لطرح الأسئلة الأخلاقية حتى في صميم النشاط الأكثر مهنية وتقنية»<sup>(6)</sup>، وبهذه الطريقة تكون له القدرة على طرح واختيار موقفه بحرية تامة، من غير السقوط في فخ السلطة، فيمتلك ثقافة المقاومة في مواجهتها.

وهذا المثقف يشبه إلى حد بعيد مفهوم المثقف العضوي عند المفكر الإيطالي اليساري الماركسي أونطونيو غرامشي، الذي تأثر بأفكاره إدوارد سعيد، وهو المثقف «الذي يخلص لطبقته، ويجعل فكره متماشيا مع حاجاتها ومتطلباتها، إذ يجب أن يكون منسجما مع ذاته بعيدا عن التناقضات وممتلكا التصور الموحد عن العالم»<sup>(7)</sup>، عكس المثقف التقليدي الذي «يتميز بأنه لا يخرج عن أن يكون مندرجا في أحد احتمالين، فإما أن يكون مثقفا لطبقة قد هزمت أو فككت، وإما أن يكون مثقفا يدعي الاستمرارية التاريخية لضرب من الثقافة، يعدّه المثقف التقليدي فوق كل الصراعات»<sup>(8)</sup>، وهذا المثقف هو سلبي وتتقي فيه صفة الالتزام.

## 2- استخدام مصطلح المثقف:

استخدم مصطلح المثقف في فرنسا كما ورد من قبل في المعجم النقدي لعلم الاجتماع، كما كان له استخدام في روسيا خلال النصف الثاني من القرن الماضي، «وكان يطلق على الصفوة المتعلمة التي تلقت تعليمها في الجامعات الأوروبية وكانت الكلمة تطلق على من سموهم "زبدة المقوة" وهم الكتاب والنقاد الأدبيون وأساتذة الجامعات والعلماء ثم أصبحت تطلق على رجال القانون»<sup>(9)</sup>، بحكم مكانتهم ضمن مؤسسات الدولة السياسية والاقتصادية.

أمّا في البيئة العربية فإنّ «بداية ظهور المثقف العربي الحديث ترجع إلى الفترة التي حدث فيها اتصال الشرق بالغرب، وذلك لما أحدثته الثقافة الأوروبية من تأثير عميق في بنية المجتمع العربي، الذي ظهرت فيه أفكار جديدة لم تكن موجودة من قبل»<sup>(10)</sup>.

وقد امتدت كلمة المثقف في المجتمعات العربية، وارتبطت أكثر بالكاتب، وذلك لما تمتلكه من «تأثير ضخم في الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلدها، ولكن يجب أن نشر إلى أن صفوة المثقفين هذه تنشأ دائما مع طبقته وتظل تشعر دائما بشعورها ولا تفصل تفكيرها عن تفكير تلك الطبقة»<sup>(11)</sup>، وهذا هو المثقف الحقيقي الفاعل والقادر على ممارسة التغيير والذي يبقى وفيًا لمبادئه حتى في أحلك الظروف والأحوال.

## 3- مفهوم المثقف عند المثقفين الجزائريين:

المثقف الجزائري على غرار مثقفي بلدان العالم الثالث ظل يتحمل أعباء الأزمات والهزات، ويحمل هموم الوطن في كل حاسة من حواسه، مما جعله أكثر اغترابا وتهميشا.

وقد ظل هذا المفهوم أكثر هلامية وزئبقية، نتيجة عدم ضبط مفهوم المصطلح، فنجد النخبة المثقفة والأنتلجنسيا، لذلك حاول عمار بلحسن توضيح الرؤية جيدا، حيث يقول: «ليس هناك أنتلجنسيا في الجزائر بل هناك مثقفون فقط لأنه لم تظهر حتى الوقت الحاضر فئة اجتماعية منظمة يمكن أن تطلق عليها اسم أنتلجنسيا وما هو موجود أو تبقى هم مجموعة من الأفراد بدون أي نسيج فكري ثقافي يربط بينهم»<sup>(12)</sup>.

وفي ظل كل هذه المعطيات التي غيرت مجرى الوعي في الجزائر، احتل موضوع المثقف قيمة كبيرة لدى المبدعين الجزائريين، الذين راحوا يصوروا هموم المثقف وآماله وأحلامه في التغيير والثورة، والنهوض بالمجتمع الجزائري نحو الأفضل، في الأوضاع المزرية التي يعيشها الشعب الجزائري، خصوصا خلال فترة الاستعمار، ثم خلال فترة الاستقلال، فنلمس في المتون الروائية الجزائرية حضورا مكثفا للمثقف، خصوصا المثقف الاشتراكي المتأثر بالفلسفة الماركسية، الذي يريد نشر الوعي في أوساط الشعب، وأغلب هؤلاء المثقفين ينتمون لطبقات متوسطة وفقيرة وقلما نجد مثقف ينتمي إلى الطبقة البرجوازية، وهذا أمر طبيعي بحكم معطيات الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي تعيشه البلاد.

وقد حاولت عدة أعمال روائية -خصوصا التي جاءت في فترة العشرية السوداء- أن تبرز ملامح شخصية المثقف، وتحديد تطلعاته وآماله، وموقفه من الأحداث الجارية في الجزائر، بل وتجعل منه همّها الأكبر، وفي هذا الصدد يمكننا ذكر رواية "المراسيم والجنائز" لبشير مفتي، التي شرّحت الوضع الاجتماعي والسياسي في الجزائر خلال تسعينيات القرن الماضي، وكان تركيزها الأكبر حول شخصية المثقف، الذي يبدو مواطنا عاديا ينتمي إلى الطبقة المتوسطة،

وهو أستاذ جامعي، لم تسعفه الأوضاع الاجتماعية في أداء دوره التنويري في الجامعة، لذلك «صار بلا جدوى وصار الحرم العلمي وسيلة لتحصيل العيش ليس إلا»<sup>(13)</sup>، فالعامل الاقتصادي يعدّ من الشروط الأساسية التي تجعل المثقف وقيًا لوظيفته ودوره في المجتمع، فأجر الأستاذ الجامعي في الجزائر منخفض مقارنة بدول عربية أخرى أو دول متقدمة، لذلك يعيش هذا المثقف جملة من المعوقات الاجتماعية والاقتصادية وحتى العاطفية، التي أعاقته على تأدية رسالته العلمية النبيلة، وتركته شريد الذهن والعقل في هذا الواقع الذي لا يرحم أحد «إنه مثقف أريكه ما حدث في البلاد، حرب لم يكن يتوقعها ولم تعطه مهلة للتفكير والتدبير»<sup>(14)</sup>، لكنه يبدو مثقفاً مستقلاً غير منتمي إلى أية إيديولوجية سياسية أو حزبية، لأنّه باختصار يعبر عن طموحات المجتمع وآمال الشعب الجزائري، ويتطلع إلى مستقبل مشرق رغم ظروف القهر والقمع التي يتعرض لها من قبل السلطة.

#### 4- صور وأنماط المثقف في الخطاب الروائي الجلاوجي:

المثقف في روايات عز الدين جلاوجي، يمتلك جملة من المواصفات التي تأهله ليكون فاعلاً وثورياً، رغم الدور الهامشي والثانوي الذي يلعبه في المجتمع، يقدم لنا جلاوجي شخصيات مثقفة تنتمي إلى طبقات متوسطة وفقيرة تتميز بالبساطة، بل وحتى برجوازية، وهذا من خلال مجموعة من التقنيات السردية التي أسهمت في إبراز توجهات الشخصيات الروائية.

ففي رواية الرماد الذي غسل الماء، اعتمد الكاتب في التعريف بشخصياته المثقفة نظام الحواشي، الذي يقدم بطاقة تعريفية بالشخصية، وهذا الشكل نادر في الكتابات الروائية العربية عموماً والجزائرية خصوصاً، فهو يقدمها بلسان السارد ويخط أسود داكن يبرز على المساحة

الورقية، حيث يلفت انتباه القارئ منذ البداية ويدخله في مغامرة القراءة من أجل فهم شخصيات الرواية ونوازعها وصراعاتها وأحلامها وأهدافها، وما يلفت انتباه المتلقي في هذا التقديم التفصيلي للشخصية المثقفة، والذي يشبه السيرة الذاتية القصيرة، هو التركيز على الهوية الثقافية للشخصية فقط، عكس الشخصيات الأخرى التي يتم فيها التركيز على البنية الفيزيائية فقط، وهذا يحمل أكثر من معنى، على اعتبار أنّ ما يهمّ في المثقف هو ما يقدم من أفكار ومواقف تعكس اتجاهه الإيديولوجي ونظرته إلى المجتمع والسلطة، وهذا ما عبّر عنه المقطع التالي في وصف شخصية فاتح اليحياوي:

«كان فاتح اليحياوي في سنواته الأولى وقد عين أستاذا لعلم الاجتماع بالجامعة يفيض حماسا ويتدفق حيوية، فألهب العقول والقلوب، ولم يكتف بفلسفات نظرية، بل راح يقود الطلبة للاحتكاك بالواقع، ويدفعهم للتفاعل معه، وتغييره، وكانت عزيزة الجنرال العقبة الكؤود التي تحدّته واعتبرته خطرا عليها، وما زالت خلفه حتى زجت به في السجن»<sup>(15)</sup>.

تقدم لنا هذه الحاشية جانبا من حياة الشخصية المثقفة، من خلال تحديد وظيفتها، ففاتح اليحياوي هو أستاذ جامعي ينتمي إلى طبقة متوسطة، ومن خلال اسمه يبدو منفتح على العالم ومنفتح الفكر، ويبدو أنه يحمل توجّها ماركسيا، لأنه ينزل إلى الواقع مع الطبقة المثقفة مثله التي يمكنها حمل مشعل التغيير، فيقوم بنشر الوعي في أوساط الطلبة، ويبعث فيهم روح الحماسة في مقاومة السلطة، ويمتلك برنامجا تنمويا ثريا، ولكنه يواجه عوائق جمة وعراقيل كثيرة تمنعه من تأدية وظيفته المركزية في تنوير العقول، ومن هنا تتطلق شرارة ذلك الصراع الأزلّي والتقليدي، بين السلطة الممثلة في شخصية عزيزة الجنرال والمثقف المتمثل في فاتح اليحياوي، الذي يشكل خطرا داهما عليها، وهذا ما جعلها تلاحقه إلى غاية الزجّ به في السجن بحكم حماسته وما يحمله من مشروع تغييرى جديد، فقد «كان فاتح اليحياوي أكثر الشباب حماسا، وأكثرهم ثورة على كل مظاهر الانحراف الاجتماعي والسياسي، وكان يدرك جيدا أن

سكان عين الرماد هم ضحية مؤامرة بين من يملكون القانون..وما كادت عزيزة الجنرال تستولي على أراضي الفلاحين البسطاء، وتأخذها منهم عنوة، وما كادت تشتري شركة البناء التي تشغل مئات العمال، وما كادت تضع يدها على أملاك دولة فتشتريها بأسعار رمزية حتى ثار في المدينة يقود الناقلين..وحدث ما لم يكن يتوقعه..لقد تدخلت القوات العمومية وفرقت المتظاهرين، ليحاكم فاتح، ويشهد بعض المتضررين على صحة ما وجه إليه من تهمة..حين زاره كريم في السجن، وقد تجلبب بالحزن العميق قال له: "التاريخ يعيد نفسه، كأني من ذرية علي، وكأن سكان عين الرماد من ذرية أهل العراق..عليها اللعنة أمة تجمعها الزرنة والبندير، وتفرقها العصا.." (16).

يصور هذا المقطع جيدا عمق الأزمة التي يعاني منها المثقفون في أوطانهم والمضطهدون والمقموعون، باختصار لأنهم قاموا بتعرية السلطة وألغواها، ورفضوا واقعهم وبحثوا عن السبل الكفيلة لتخليص أوطانهم من أوكار الفساد والنهب والجهل، والتعبير عن حرية الرأي وتحقيق العدالة الاجتماعية، كما صوروا ذلك الصراع بين الطبقة الفقيرة والغنية، «المثقف وهو يعيش واقعا مزريا ستطاع أن يقرأ في السلطة عطب الوجود، فوقف منها موقف الاحتجاج والتنديد إزاء ما يتعرض له الأفراد من ظلم وتعسف» (17)، وقد تحمل كل هذه الصعوبات والمحن وعاش اغترابا وجوديا موحشا في مجتمع، ينتصر فيه الأقوياء مالا ونفوذا على القانون الذي يطبق على الضعفاء فقط، فشخصية فاتح«وقفت في وجه السلطة وقاومتها ولم يزلها جبروت السلطة وقمعها إلى تمسكا بمبادئها وأهدافها ودورها المنوط بها» (18)، لذلك «لم يزعج فاتح اليحياوي دخول السجن..كثير من الشرفاء زج بهم فيه، ومازالوا يزوجون، لكن ما حزّ في نفسه أن تنفض عنه الجموع الغفيرة التي تجمع على أن عزيزة بوطويل ثعبان عاث في مدينة عين الرماد فسادا..بل ووصل الحد ببعضهم أن شهدوا ضده زورا وبهتانا..حينما خرج من السجن أعلن أنه فلسفة أبي العلاء المعري رهين محابسه..وأعلن أن هذه الأمة قد قضى عليها القدر بالذل والهوان.» (19)، فالمثقف الجزائري الممثل في فاتح كان يحمل بذور النقاء والطهارة في



أعماقه ولكنه اصطدم بواقع آخر معاكس تماما لطموحاته ورغباته، فهو واقع يحمل كل أشكال الزيف والخواء، لذلك عجز على تغييره، واكتفى برفضه فرفضه الواقع أيضا، فتحول إلى مثقف مغترب ومنعزل عن المجتمع والشعب، الذي حكمت عليه الأقدار بأن يعيش ذليلا ومهاناً من قبل السلطة الحاكمة، لأنه جاهل ويفتقد للوعي وليس له مبادئ وقيم أخلاقية، ويعيش انهياراً على مختلف المستويات والأصعدة، ولكن رغم هذه الظروف والكروب التي ألمت بالمتقف يبقى وفيًا لمبادئه و متمسكا بنقائه من أجل صنع قيم جديدة، رغم عجزه عن ممارسة التغيير والثورة، فقد دخل السجن لأنه أراد محاكمة السلطة (عزيزة الجنرال)، التي لفتت له مجموعة من التهم بالتواطؤ مع مؤسسات الدولة التي تمثل السلطة القانونية، فوجد نفسه في السجن، الذي يمثل الجزاء الذي يمثل العقاب التي تنتظر كل مثقف متمرد عن الواقع.

وأمام هذا الوضع المتأزم فضّل فاتح اليحياوي الإنسان المثقف طريق العزلة والانطواء:

«وقد قضى فاتح اليحياوي سنوات معتزلا الناس، يقضي وقته في القراءة والتأمل وسماع الموسيقى، والوحيد الذي كان يجرؤ على اقتحام خلوته هو صديق الطفولة كريم السامعي الذي كان يسميه حي بن يقظان، وكان فاتح اليحياوي يحس بالنشوة وهو يسمع هذا اللقب ويقول:

-ليتني أكونه.. تلك درجة العليين الفائقين.

ثم تفتتح شهيته للحديث عن آسال وسلامان وحي وأمثالهم في واقع الناس»<sup>(20)</sup>، فالعزلة بالنسبة للمثقف تمثل نوعا من السمو الروحي الذي يرتقي بالذات من هذا الواقع، وهذا يبرز حجم الاغتراب الذي يعيشه المثقفون في أوطانهم، فهو يسترجع حي بن يقظان وآسال وسلامان، ليبين أن غربة المثقف هي نفسها في كل الأزمنة والأمكنة، فما أشبه الأمس باليوم.

وهي نفس الغربة التي يعيشها مثقف رواية سراق الحلم والفجيرة فشخصيته «تسعر بالخواء الداخلي، فهي مستلبة الإرادة والحقوق والمشاعر وبالتالي فهي خاضعة ومنصاعة، مستسلمة

استسلاما يشل حركة الجسد ويخدر الروح»<sup>(21)</sup>، لم يعد لها كلمة مسموعة لدى الرأي العام وفي المجتمع، وصارت تعيش حالة من الاغتراب والانشطار الوجودي، وهذا ما يفصح عنه النص الروائي منذ البداية في الحاشية الأولى « الغربة ملح أجاج... وحدي أنا والمدينة...»

تكلت الهوى...تكلت السكينة...

لا ورد ينمو ها هنا...لا قمر...لا حبيبة...

لا دفء في القلب الحزين...»<sup>(22)</sup>، فكل الظروف الراهنة ضد المثقف، لذلك أنهكه هذا الهمّ ليعيش حياة العزلة والغربة في مجتمع لا يقدر قيمة الثقافة والمثقفين.

وتبدو شخصية المثقف في رواية رأس المحنة، شخصية ملتزمة تمتلك حساً تغييرياً يحمل روح المقاومة والصمود، فمثير من خلال الاسم يمثل ذلك النموذج من المثقفين الذي يرمز إلى النور والتطوير، من خلال محاولة تنوير عقول شباب حارة الحفرة وتوعيتهم، والاستمرار على درب الآباء والأجداد حتى الموت «يا عمي صالح يجب أن نتعامل مع واقع..مع شيء كائن لا مع ما كان..يجب علينا أن نقاوم إلى آخر رمق من حياتنا..فإذا ما متنا يجب أن نموت واقفين..كالأشجار يجب أن نموت واقفين..لقد علمتني أن النسر حين يشعر بنهايته يطير..يخلق..يرتفع في السماء ويستمر محلقة حتى يصل إلى آخر نقطة يستطيع ثم يختار أعلى قمة ويهوي فوقها ليلقى حتفه»<sup>(23)</sup>، إنّ هذا المقطع يمثل المثقف الحقيقي، الصامد في وجه السلطة، والمتحمل لكل أصناف العذاب والقهر، فهو يحمل همّ الأمة في كل جوارحه يتألم لحالها ويبكي جراحاتها، وينتابه ذلك الشمو بالحسرة لواقع سكان حارة الحفرة، الذين لا يملكون وعياً عميقاً بالواقع، لذلك يعلن هذا المثقف منذ البداية عن توجهه وإيديولوجيته، التي تبحث عن السبل الكفيلة لتغيير واقع سكان حارة الحفرة، وتعاطي الوضع الذي تعيشه، لكنه

سرعان ما يصطدم هو الآخر بواقع ينتصر إلى المادة والمال على حساب القيم والأفكار: «دخلت المكتبة..سحابة من الكآبة تغطي رفوفها..وحدها الأوراق تعزف موالها الحزين..تندثر الغبار..كم رجوته أن يغير المهنة..كم قلت له: هؤلاء الناس يلهثون خلف ما يملأ بطونهم..لا ما يملأ عقولهم..حوّل مكتبك إلى محل لبيع المواد الغذائية وسترى كيف تتغير حالتك..أو أخرج من هذه الأرض الملعونة..»<sup>(24)</sup> ، فهذا المجتمع جاهل ولم يستوعب بعد حركة التاريخ والتقدم، وموقعه ضمن هذه المنظومة التاريخية، لذلك فالوضع ميؤوس من شفائه، فقد أصاب سكان حارة الحفرة سرطان اليأس، ولم يعد باستطاعتهم مجابهة السلطة ورؤوس الفساد فيها، وحلّت بهم لعنة الفقر والتخلف، «الأثرياء يزدادون ثراء وطغيانا..اشترى كل شيء..القانون..المسؤولين..وصاروا هم أصحاب القرار..أما الفقراء فقد كثر الفقر أنيابه عليهم ليسحقهم..»<sup>(25)</sup> ، فمنير كمتقف أدرك حقيقة الصراع القائم في المجتمع بين الطبقة البرجوازية والطبقة الفقيرة «صدقت يا ماركس القضية صراع طبقي..والملكية هي الفتنة الكبرى..إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»<sup>(26)</sup>، ورغم هذا الوضع المأساوي يبقى المتقف(منير) وفيًا لوطنه، فهو لا يريد الهروب ويترك وطنه في أوقات الشدة، لأن مبادئه لا تسمح بذلك، فحبّ الوطن من الإيمان ومن المبادئ الراسخة في عقيدة المتقف العضوي بتعبير غرامشي، لذلك فهو يرتاح فيه خير من الذهاب إلى بلد أجنبي ربّما سيفقده هويته الأصلية: «أنا هكذا مستريح وسعيد يا عبد الرحيم..ليس لنا صدر أحن علينا من الجزائر..»<sup>(27)</sup> ، فالوطن بالنسبة للمتقف فوق كل اعتبار، وهو الخط الأحمر الذي لا يمكن تجاوزه، والكاتب في هذا يقدم نقدا واضحا لمجموعة من المتقفين الذين هجروا أوطانهم وفضلوا العيش في المهجر، لي شاهد واقع بلدهم من خلال القنوات التلفزيونية فقط، وهذا ما يفقدهم الإحساس بحجم الفجيعة والألم الذي حلّ بالجزائر خلال تسعينيات القرن الماضي، لذلك كان عليهم البقاء حتى ولو كلفهم ذلك حياتهم فالكثير من المتقفين الجزائريين اختالتهم يد الإرهاب، لذلك يبقى الهمّ الوطني يسري في دم منير، وباختصار فهو يمثل «حقائق الراهن

وتأزماته في حالة الحضور، كما يمكنها أن تمثل الواعية لممكنات الهوية وأيديولوجيتها المتمثلة في الشباب الواعي العارف بواقع الحال»<sup>(28)</sup>، فلا يرى العيش أفضل من العيش في الجزائر رغم الأوضاع المأزومة التي يعيشها المثقف.

وفي رواية حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر تحضر أنماطا عديدة من المثقفين الثوريين والنضاليين، فهناك المثقف التراثي الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة مثل شخصية عمي رايح ويوسف الروح، وهناك المثقف البرجوازي والنخبوي والمتمثل في الشخصية التاريخية عباس فرحات، وعلى غرار الروايات السابقة يقدم السارد بطاقة تعريفية لهذه الشخصيات:

فالمثقف البرجوازي النخبوي لا نجد له حضور كبير في الرواية الجزائرية، ولكنه يمتلك حضورا بارزا في رواية حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، خصوصا أنها تحفر في التاريخ الجزائر الحديث، وتسترجع شخصيات بارزة لها باع كبير في مسار الحركة الوطنية، لعل أهمها شخصية فرحات عباس الذي يعدّ من النخبة الجزائرية البرجوازية خلال فترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، يقدم لنا السارد هذه الشخصية: «كان فرحات عباس قد أنهى دراسة الطب والصيدلة في جامعة العاصمة، وكان إلى جانب ذلك شابا طموحا مثقفا مطلعاً بشكل عميق على آداب الغرب وثقافته، متأثرا بهما»<sup>(29)</sup>، ركّز السارد في هذا الوصف على مسار الشخصية، فقد تخرّج فرحات عباس مع الدفعات الأولى بمعهد الطب والصيدلة، ويحمل فكرا غربيا علمانيا، وإلى جانب هذا فهو يحمل روح التغيير، وكان أكثر احتكاكا وتوصلا مع الحركات الوطنية، من أجل تقريب وجهات النظر بين مختلف أطرافها الفاعلة في الساحة السياسية الجزائرية آنذاك-«وفرحات عباس من مؤسسي جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، وعمل رفقة الأمير خالد، ومواقفه مشرفة لتحصيل حقوق الجزائريين من أيدي المعمرين، والمطالبة بالمساواة معهم، لقد تخرج فرحات عباس من جامعة الجزائر، كلية طب وصيدلة، وأبى إلا أن يفتح صيدلية في هذه المدينة، ومنها سيخوض نضاله النيابي، إنه

كطائر النورس، يحب الحرية، يحب التحليق في الفضاء المفتوح، يحب ارتياد الشواطئ ليختار أجملها وأبهاها، وهذا شاطئه نرجو أن يجد رماله ناعمة و...»<sup>(30)</sup>، تستند هذه المعلومات إلى وثائق تاريخية تخصّ هاته الشخصية لذلك يتداخل التاريخي مع المتخيل، ليصنع في الأخير الشخصية الروائية، التي تمثل نموذجا للمثقف العلماني التي تشبّع بثقافة الغرب ونظام حكمها، والتي تستند إلى مجتمع غربي مسيحي، لكنه يحاول أن ينشر ذلك الوعي في مجتمع مسلم تكوّن تكويننا سلفيا، لينطلق ذلك الصراع بين العلمانيين المتشبعين بالثقافة الغربية والذين يمثلون النخبة، خصوصا في فرحات عباس وصالح القاوري، الذي هو اسم على مسمى، سواء من حيث الجانب الفيزيقي أو من حيث الثقافة التي صنعته، والسلفيين المتمسكين بمبادئ جمعية العلماء المسلمين، والمثّلين في عمي رابح ويوسف الروح، فهو صراع بين المثقف التراثي والمثقف العلماني، وينطلق هذا الصراع لما يسعى صالح القاوري إلى تنفيذ برنامجه السردي من خلال دخول مقهى العرب ليعرّفهم بشخصية فرحات عباس «ليس من عادتك أن تجلس في مقهى العرب، يا صالح ألست من النخبة؟ درست في فرنسا، وتعمل معلما للفرنسية، ألم تتعود على الجلوس في مقهى فرنسا بالشارع الرئيسي حيث يجلس الفرنسيون؟ (...)- خيرا يا صالح ما هذا التواضع الكبير؟ ستخرج الدابة اليوم لا محالة.

- بل سيبعث الأنبياء»<sup>(31)</sup>، يقدم لنا هذا المقطع تكوين الشخصية ووظيفتها وانتمائها الطبقي لذلك تبرز إيديولوجيتها منذ البداية، لتكشف عن مثقف نخبوي يسعى لبقاء فرنسا في الجزائر ويحاول إجهاض كل محاولات التمرد والثورة، فهذا المثقف تقليدي باصطلاح غرامشي لأنّه يسعى إلى المحافظة على الأوضاع من خلال بقاء فرنسا، فهو عميل لصالح النظام الاستعماري، ويسعى إلى القضاء على الهوية العربية والإسلامية، فصالح يمثل نموذجا للمثقف السلبي، الذي يسعى إلى المشاركة في مسيرة الاستقلال الوطني، وهو يعلن القطيعة مع التراث والدين»-رجال جمعية العلماء رجال دين، ثقافتهم محصورة في التراث العربي القديم، هم لم يقرأوا مثلا جون جاك روسو ولا لامارتين ولا هوجو ولا فرجيل وصوفو كل ولا

منتسكيو وكتابه الرائع روح الشرائع»<sup>(32)</sup>، لذلك نلمس نوعاً من السخرية من قبل يوسف الروج الذي يمثل نموذجاً للمثقف السلفي «الذي يتوسل التراث لتغيير الواقع، ويرى أن النموذج الأمثل للحضارة قد أنجز وانتهى وأنه أفضل للبشرية محاكاة الماضي ومحاولة تمثله وإعادة تشكيله»<sup>(33)</sup>، وهذه السخرية في مشاركة صالح القاوري والطبقة البرجوازية النخبوية ضد الاستعمار الفرنسي، ترجع إلى الكاتب، الذي نظر إلى مسيرة النضال ضد هذا المستعمر من وعي مسبق، يقسم الناس إلى طبييين وأشرار، أما عباس فرحات فقد حاول تقريب وجهات النظر بين مختلف الأطراف المتصارعة، من دون التخلي عن مبادئه الأساسية، والداعية إلى العمل السياسي على حساب العمل الثوري، لذلك لقيت جهوده سخرية ورفضاً منقطع النظير من قبل المثقفين التراثيين «قال سي الهادي:

-وهذه النخبة نبحت وتريد أن تنقل نباحها إلينا.

قال يوسف الروج:

-وهذه هي النخبة التي يريد مشروع موريس فيوليت أن يمنحها الجنسية، بمعنى لا تمنح الجنسية إلا لمن تأكدوا من ذوبانهم داخلهم، أي من صار يحسن النباح»<sup>(34)</sup>، فالمثقف النخبوي لا يمتلك وعياً ثورياً بل أكثر من ذلك يقيم تحالفاً مع المستعمر، لذلك «تسعى البرجوازية الاستعمارية كما يقول فرانز فانون إلى عقد صلات بالنخبة المثقفة في البلد المستعمر، وبذلك ينشأ تحالف بين الطرفين ويعمل كل طرف على تحقيق مصالح الطرف الآخر فتحقق البرجوازية الاستعمارية مصالح النخبة المثقفة بدعمها ومساندتها لتتمكن من المحافظة على امتيازاتها وتحقق هذه النخبة مصالح البرجوازية الرأسمالية عن طريق عجزها عن إنجاز التقدم والتطور للمجتمع»<sup>(35)</sup>، ومن هنا يبرز الموقف السلبي للمثقف النخبوي من قضايا الاستقلال الوطني، ولكن هذا لا يلغي بعض المشاريع المنجزة من قبل النخبة، لكنها لا تلقى الإجماع من الشعب لجهله بأهداف المشروع وعدم فهم مفرداته ومصطلحاته.

وقد تمكّن الكاتب من رصد الصراعات المختلفة والتناقضات الصارخة التي شهدتها الساحة السياسية في الجزائر خلال الاستعمار، وهذا من بؤابة المثقف الذي يمثل نموذجاً فاعلاً في تغيير مسار البلاد، وقد حفل المتن الروائي الجلاوي بنماذج عديدة من المثقفين، الذين ينتمون إلى طبقات مختلفة و لديهم تكوين مختلف، فكان هنالك المثقف التراثي والمثقف النخبوي، كما أشار الكاتب إلى ذلك الصراع السرمدى بين المثقف والسلطة، وما يعانيه من اغتراب وعزلة، مستثمراً في ذلك مختلف الإمكانات التعبيرية والتقنيات السردية، التي قدّمت للقارئ صورة واضحة عن المثقف الجزائري وما يعانيه في مجتمعه من عراقيل وصعوبات، حالت دون قيامه بمهامّه النبيلة المنوطة به.

#### -خاتمة:

من خلال هذه الجولة البحثية داخل فضاء المثقف في الرواية الجزائرية والمتمن الروائي الجلاوي خصوصاً، يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج التي تمثل خلاصة هذا المقال والتي يمكننا اختصارها في النقاط الآتية:

-لا يخلو أي نص روائي من روايات عز الدين جلاوي من طرح لقضية المثقف وما يعيشه من هموم وأوضاع، حيث يتم استثمار هذه الشخصية ضمن معطيات السرد، فتمتزج بباقي القضايا الأخرى لتصنع في النهاية جمالية المتخيل الروائي الجلاوي.

-المثقف عند عز الدين جلاوي مثقف واع أدرك حقيقة وجوده ودوره في عملية التعبير وفي السيرورة التاريخية للمجتمع، لكنه يبقى عاجزاً عن تحقيق دوره الثوري، بفعل معيقات عديدة أعاقته عن أداء مهامّه وتبقى السلطة أهم تلك العقبات، وهي ممثلة في شخصية عزيزة الجنرال في رواية الرماد الذي غسل الماء وشخصية محمد الملمد في رواية رأس المحنة.

-أمام قهر السلطة فضلَ مثقف جلاوجي طريق العزلة، ليعيش عوالمه ويمارس طقوسه بكلّ حرية، وهذا عبر الانفلات من قبضة الراهن، والبحث عن المكان اليوتوبي الذي يحتمي فيه من هذا الواقع الحاضر الموبوء، الذي يعمّه الفساد والعفن من كل جانب، كما تجسّد ذلك من خلال شخصية المثقف فاتح اليحياوي في رواية الرماد الذي غسل الماء، وشخصية المثقف منير في رواية رأس المحنة، اللذان جسّدًا جيّدًا غربة المثقف في مجتمع ينتصر فيه المال والنفوذ على حساب العلم والثقافة والفكر.

-قدمت رواية حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر نماذج عديدة للمثقفين، خصوصا المثقف التراثي والمثقف العلماني، وحدّدت مستوياتهم الثقافية والاجتماعية، وجسّدت ذلك الصراع بين الطرفين، كما أوردهت لنا الذاكرة التاريخية بمصادرها المختلفة.

وباختصار تبقى أزمة المثقف في روايات عز الدين جلاوجي أزمة سلطة قبل كل شيء، لأنّ هذا المثقف يمتلك الوعي اللازم، لكنّه وجد في وجهه السلطة كأكبر عائق ضد مشروعه التنويري، فلم يستطع تجاوز هذه العقبة الصعبة، وهذا لا ينفي تماما غياب الدور التوعوي للمثقف الجزائري، لأنّه عضو محوري في هذا الوطن ويحمل همومه وآلامه.

-الهوامش والإحالات:

- 1- ر.بورون وف.بوريلو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر: سليم الحداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص 48.
- 2- محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص 252.
- 3- ر.بورون وف. بوريلو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ص 489.
- 4- إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، دار رؤية للطباعة والنشر، القاهرة، ط2002، ص1، ص9.



- 5- إدوارد سعيد: صور المثقف، تر: محمد عناني، دار رؤية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2006، ص 57.
- 6- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 7- محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص15.
- 8- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 9- حسن سفحان: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، مصر، ط5، 1961، ص515.
- 10- محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية، ص 16.
- 11- حسن سفحان: أسس علم الاجتماع، ص 515.
- 12- عمار بلحسن: مثقفون أم أنتلجينيستيا في الجزائر، دار الحداثة، بيروت، 1986، ص54.
- 13- مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 66.
- 14- المرجع نفسه: ص 86.
- 15- عز الدين جلاوجي، الرماد الذي غسل الماء، دار الروائع للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2003، ص 38.
- 16- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- 17- حفيظة طعام. عبد الحميد هيمة وآخرون: سلطان النص -دراسات-، دار المعرفة، الجزائر، ط1، 2009، ص265.
- 18- محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية، ص 118.
- 19- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء: ص38-39.
- 20- المصدر نفسه: ص 18.

- 21-حفيظة طعام.عبد الحميد هيمة وآخرون: سلطان النص، ص 192.
- 22-عز الدين جلاوجي: الأعمال غير الكاملة، ص 418.
- 23-المصدر نفسه: ص 66.
- 24-المصدر نفسه: ص 51.
- 25-المصدر نفسه: ص 116.
- 26-المصدر نفسه: ص 117.
- 27-المصدر نفسه: ص 51.
- 28-محمد بشير بويجرة.حفيظة طعام وآخرون: سلطان النص، ص 164-165.
- 29-عز الدين جلاوجي: حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر ط1، 2013، ص 395.
- 30-المصدر نفسه: ص 396.
- 31-المصدر نفسه: ص 393-394.
- 32-المصدر نفسه: ص 405.
- 33-محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية، ص 56.
- 34-عز الدين جلاوجي: حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 397.
- 35-محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية الجزائرية، ص 72.

